

من روائع خطب العلامة البوطي "شاهد المنبر والحراب"

هكذا استعملت الوهابية أداة لتمزيق شمل المسلمين

خطبة الجمعة بتاريخ ٤-٩-١٩٩٢

الحمد لله ثم الحمد لله الحمد حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، سبحانك اللهم لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليفه خير نبي أرسله، أرسله الله إلى العالم كله بشيراً ونذيراً. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاةً وسلاماً دائماً متلازمين إلى يوم الدين، وأوصيكم أيها المسلمون ونفسي المذنبه بتقوى الله تعالى.

أما بعدُ فيا عباد الله:

كثيرون هم الذين يتحدثون بصفاء قلبٍ وبصدق نية عما يسمى اليوم بالصحة أو اليقظة الإسلامية، ويتحدثون فرحين مبتهجين عن كثيرٍ من هذه المظاهر، فيذكر الواحد منهم صاحبه أو إخوانه مثلاً بتلك القرية البريطانية التي دخلت بقضها وقضيضها بالإسلام، وأقامت في قريتها مجتمعاً إسلامياً صغيراً مثالياً كما أمر الله عزَّ وجل، ويتحدث الآخر عن العشرات بل ربما المئات الذين يدخلون في دين الله أفواجاً من ذكور وإناث في شتى ربوع ذلك العالم الغربي، وكل هذا صحيح والأمثلة أكثر من ذلك، ولكني أحب أن أقول إن علينا أن نخشى من الطامعين في النعمة أكثر من أن نفرح بالنعمة ذاتها، كلما عظمت النعمة كلما كثر الطامعون من حولها، ولذلك فإن الذي يشغلني عن الفرح باليقظة الإسلامية الحقيقية إنما هو تصور المخاوف عليها، فبمقدار ما هنالك إقبال على الإسلام في ربوع الغرب وغيره بمقدار ما يوجد وسائل وخطط مأكرة جديدة مستحدثة للترصص بالإسلام وللکید به؛ بل للقضاء عليه حيث ما وجد، وذلك هو شأن أعداء الإسلام كلما رأوا نجمه

خافتاً كلما أعرضوا عنه وبردت همهم في معاداتهم، فإذا رأوا نجمه وقد تألق، وإذا رأوا طاقته وقد أقبلت بعد إدبار جمعوا وسائلهم وهيئوا عُددهم وأسهروا ليلهم في سبيل الكيد لهذا الدين الذي أصبح يشكل خطراً كبيراً عليهم، ينبغي أن نكون من الوعي بحيث نفرح بالنعمة آناً، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يعافينا من الماكرين والمتربصين آناً آخر على أقل تقدير.

وإذا عرفنا أن هنالك أعداءً يتربصون بهذا الدين، وأن هنالك خططاً مأكرة تُرسم، فلنتذكر ولنتبين هذه الخطط، ولنكن على مستوى الوعي الذي يتطلبه منا إيماننا وديننا، كيف ترسم هذه الخطط أيها المسلمون، إنها ترسم في أقبية مظلمة خفية بعيدة حتى عن تلك المجتمعات الغريبة البعيدة عن الإسلام، ولكن كثيراً من أبطال تطبيقها هم المسلمون أنفسهم، كل من لم يعي هذه الحقيقة فهو في الحقيقة مغفل، وهو في الحقيقة سادر الفكر ساذج الوعي، الخطط ترسم هناك بعيداً جداً لكن كثيراً من أبطالها هم من المسلمين أنفسهم، والكثير من هؤلاء المسلمين على علم بما يراد بهم وكل منهم يعلم هويته مجنداً في سبيل الكيد للإسلام والمسلمين، ولكن فيهم من يسر بدون وعي في هذا الطريق، وأظن أن كلاً منا ينبغي أن يعلم أن هذه الخطط كثيرة ومتنوعة ولكن أبرزها وأخطرها هي الخطة التي ترمي إلى الإيقاع بين المسلمين.

تلك الخطة التي تهدف إلى جعل إسلام المسلمين الواحد إسلامات كثيرة متناقضة متخاصمة متعادية، تلك هي أخطر الخطط التي ترسم كما قلت لكم هناك بعيداً وأنا على علم بذلك، ولكنها تعهد إلى أناس منفذين من أبناء جلدتنا مسلمون في الظاهر، ذلك لأن أحداً لا يستطيع أن يمزق شمل المسلمين إلا إذا كان القائم بذلك من المسلمين أنفسهم، أتصورون أن عدواً لنا يستطيع أن يتسلل إلى داخل البنية الإسلامية فيصدع هذه البنية؟ لا. لأن هوية هذا العدو مكشوفة، ومن ثم فإن عمله سيأتي بنقيض ما يريد، ولكن الطريقة هي أن يعهد بهذا الأمر إلى مسلمين هوياتهم تنطق بأنهم مسلمون، بل بأنهم غيارى على الإسلام وعقائده ومبادئه ثم إنهم يتسربون إلى حلبة النقاش في مبادئ الإسلام وأحكامه وعقائده، فيطرحون الأمور الخلافية واحدة إثر أخرى، ويجعلون من تلك الجزئيات الخلافية بركاناً لتفجير مشكلة، ويجعلون منها أساساً لتكفير أو لتفسيق أو لتبديع، ثم إنهم

يلاحقون المسلم بما مشكلةً إثر مشكلة إثر مشكلة، ويسيروا في طريق ذلك على نهجٍ من التنطع الممجوج ويتبعون في ذلك أسلوباً من التكلف البين الذي تفوح رائحته لكل متأمل ومتدبر.

وهكذا فإن هذا الطابور من هؤلاء المسلمين ظاهراً يسلكون سبيلاً يصل بهم إلى الغاية المرسومة، والغاية المرسومة أن يتحول المسلمون الذين أظلمهم إسلامهم في ساحة إيمانية واحدة وكون منهم أمة واحدة خلال قرون متطاولة من الزمن؛ يحيلون هذه الأمة الواحدة إلى فئات متناحرة متعادية متخاصمة، هكذا كما يفعل أولئك الذين يحدقون حول مائدة وضع عليها شواء كبير من قطعة واحدة، كيف السبيل إلى أن يلتهمها هؤلاء الآكلون؟ السبيل إلى ذلك أن يضع هذا الشواء إلى قطع قطع صغيرة حتى يستطيع كل منهم أن يجعل من كل قطعة مضغعة يزرددها تماماً هذا هو الواقع الذي يجري اليوم، وهو يجري باسم الإسلام.

تصوروا أيها الأخوة وعودوا بأذهانكم إلى ما قبل خمسة قرون أو ستة قرون أو سبعة أو ثمانية قرون أفقتطيعون أن تشموا رائحة لخلاف بين المسلمين أو لتصارع فيما بينهم بسبب التساؤل عما معنى قول الله عز وجل: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾؟ هل تستطيعون أن تشموا رائحة صراع وخصومات فضلاً عن التكفير في ساحة المسلمين قبل ثمانية قرون مثلاً بسبب اختلافهم حول تفسير آيات الصفات؟ أو بسبب اختلافهم حول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوسل به أو لا يتوسل به؟ نبشوا وفتشوا كتب التاريخ وكتب التراجم منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذه القرون الأخيرة هل تجدون من أقام الدنيا وأقعدها بالنكير والتكفير بسبب التساؤل هل أن الله في جهة العلو أم ليس في جهة العلو؟ لن نبشتم وفكرتم لن تجدوا هذه المسألة أبداً تكونت منها مشكلة في عهد من عهود الإسلام الغابر قط، ربما بحثوا واختلفوا لكنهم وقفوا عند ما سميت الاختلاف التعاوني فقط، ولم يعكّر هذا الاختلاف معناً من معاني الوداد بينهم فضلاً عن أن يصدّع صفاً لهم، فضلاً عن أن يمكن العدو المتربص ليدخل في ساحتهم وليستغل الخصام القائم فيما بينهم، ولكن أصغي جيداً اليوم انظر كيف تقوم المهاترات لا أقول في المجتمع الإسلامي، فالجتماع الإسلامي تحول إلى بركان في هذا الأمر، لا بل في المجتمعات الغربية ضمن الدوائر الإسلامية الصغيرة، انظر كيف يبدأ الخصام ولا ينتهي

حول تفسير العلو بالنسبة لذات الله عز وجل، إن لم تقل إن الله في جهة العلو فقد كفرت وأشركت وخرجت من الملة.

ومهما قام النقاش ومهما قام الجدل ومهما قدمت الأدلة على أن جزع الدين في هذه القضايا واحد، وأن المبادئ الكلية لا يمكن أن يجري خلاف حولها، فالله لا يتحيز في مكان، والله جلّ عن أن يشبه مخلوقاته لن تجد هنالك سبيلاً لإنهاء هذا اللجج أولاً وآخرًا قط، ذلك لأن هذه الأمور إنما تستثار من أجل غاية لا تتعلق بالمسألة العلمية ذاتها، الغاية هي أن يتصدع المسلمون، وأن يتحولوا إلى فئتين أو فئات كل فئة تكفر الأخرى. قرأنا هذه التقارير الخفية ذات يوم صاعدة من جامعات استشرافية غريبة، ولكن ويا للأسف من هم الجنود المنفذون لها؟ هم أولئك الذين يدعون إلى أنفسهم لتكون لهم الريادة الإسلامية، ووالله إنهم لمجدون من أجل تطبيق هذه الخطة الذي ستأتي الأيام لتكشف عنها وتكشف عن صادرها وواردها.

وإذا قلت لهؤلاء المنتطعين أين هي جهة العلو التي استقر فيها الله عز وجل هاهنا أم هاهنا أم هنا؟ أشار لك إلى الفوق، طبعاً لا بد أن يشير ما دام يقول إن الله في جهة الفوق، إذاً هو في جهة من الجهات ويشير لك هكذا، وانظر إلى هذا العلم الذي يصل إلى حضيض التفاهة والجهل، وانظر إلى التخلف العقلي الذي يشفق الصغار في مدارسهم على مثل هذا التخلف العقلي والفكري، الله في هذه الجهة العليا، هذه الجهة العليا هي جهة السفلى في مكان آخر، فكيف تحل المشكلة؟ هل تقول في أي مكان وجدت فيه إن الله في علو بالنسبة لذلك المكان لا غير؟ فإذا طرت إلى المكان المقابل غيرت كلامك وقلت الله في جهة العلو هناك لا غير؟ من الذي يصدقك بهذا الكلام التافه الذي يقال في عصر العلم وتنبذه ثقافة التلاميذ في مدارسهم! ومهما قلت ولكن الله عز وجل يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾، ويقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ ويقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَا تُوسَّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، مهما قلت له هذا الكلام فإن هذا لا ينهي اللجج والجدل أبداً. لماذا؟ لأن الهدف ليس حل مشكلة، وإنما الهدف اختلاق مشكلة. وصلى الله وسلم على رسوله محمد النبي الأمي الذي أطلعه الله على كثير من

المآسي التي وقعت من بعده إلى يومنا هذا إذ يقول في الحديث الصحيح: "هلك المنتطعون" ووالله لئن لم يكن هذا هو التنطع بعينه فلا أعلم صورة للتنطع بعد ذلك بشكل من الأشكال.

ولقد قلت مرة وأقولها أيها الأخوة وسأصدر بياناً مكتوباً بها، قلت لعالم جليل من علماء ذلك الصقع الذين ينادون لأنفسهم بالريادة الإسلامية ليمزقوا شمل المسلمين، قلت: إلى متى تجعلون من الإسلام سلاحاً تقطعون به أوصال هذه الأمة؟ نحن أمة واحدة ونحن فوق ذلك كلنا من أهل السنة والجماعة، كلنا ننشد الإخاء تسموننا ضيوف الرحمن حتى إذا اتجه ضيوف الرحمن إلى هناك استقبلتموهم بالكفر والتبذير، سمعت خطيب مسجد نمرّة وهو يخاطب المسلمين يكفرهم يشركهم لأنهم يتوسلون برسول الله، ويجعلهم داخلين تحت نطاق الله عز وجل: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. قلت: في أي قاموس ديني، في أي قرآن وفي تفسير لقرآن هذه الآية يجوز إسقاطها على هؤلاء المسلمين الموحدين الذين يذهبون حجاجاً إلى بيت الله الحرام؟، وانتهينا إلى وفاق إلى أن هذه مشكلة يجب حلها، وأن هناك مدسوسين يجب كشفهم، قلنا فأين السبيل واتفقت معه على أن السبيل هو التالي: أن يذهب إلى بلده ويختار عشرة أسماء من أرقى العلماء اختصاصاً وأفضلهم إخلاصاً لدين الله، وأختار أنا أيضاً من علماء هذه البلدة قدر ذلك، أفضلهم اختصاصاً وأفضلهم إخلاصاً فيما نظن ونتصور، ثم نتداعى إلى ندوة يتلاقى فيها هؤلاء العلماء فيتناقشون في هذه المسائل التي أصبحت سلاح تبضيع وتمزيق لهذه الأمة، فما اتفقنا عليه بعد النقاش يكون قد انتهى الإشكال فيه وما لم نتفق عليه يكون اختلافنا المستمر دليل على أنه أمرٌ اجتهادي، ومادام أمراً اجتهدياً ينبغي أن يعذر كل فريق منا صاحبه، ثم ينبغي أن نتوافق ونتعاهد على أن لا نثير هذه الأمور، بل ينبغي أن نغذي وحدتنا نغذي جزع إسلامنا الواحد، اتفقت معه على ذلك وذهب عائداً إلى بلده وعدت عائداً إلى بلدي دمشق زادها الله حراسة وزادها الله رعاية وأما وأرسلت إليه أسماء عشرة علماء معتدلين، علماء أحسب أنهم مخلصون لدين الله عز وجل، وانتظرت أن يرسل لي أسماء عشرة من قبله لنتفق على لقاء وحوار. وإلى اليوم ومنذ ست أو سبع سنوات وأنا أنتظر الجواب منه.

ولقد علمت أن المسألة طرحت لكن أولئك العلماء الغياري على التوحيد وعلى دين الله عز وجل فترّوا فراراً عجيباً عندما شعروا بالدعوة لهذا اللقاء، إذا المسألة أيها الأخوة من الخطورة بمكان عرف ذلك من عرف وجهله من جهل، المسألة لا تنطوي على غيرة على دين الله معاذ الله، إنما هي الغيرة من وحدة الأمة، إنما هي الحق على وحدة هذه الأمة، هناك يقظة إسلامية تهدد لابد من كف جماحها، ولا بد من ردها على أعقابها كيف السبيل إلى ذلك؟ هناك في المجتمع الغربي لا فائدة؛ بل سيخلق ذلك ردة فعل، السبيل هو أن يمزق شمل المسلمين حيث يتجه أولئك الناس إلى الإسلام، السبيل أن يصبح الإسلام الواحد كما قلت لكم أدياناً متصارعة يأكل بعضها بعضاً.

ولقد قرأت تقريراً لإنسان يشتهي ويتمنى أن يرى الإسلام وقد تحول إلى ما يشبه الفرق المتعادية في الغرب للمسيحية التي يأكل بعضها بعضاً فعلاً الآن، ولكن هذا إنما يمثل أمنية لبشر، وعلينا أن نقول هذا لنكون على مستوى الوعي وعلى مستوى اليقظة الإسلامية التي ينبغي أن نتمتع بها، وإلا لابد أن نتذكر قول الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ما المصيبة في أن أتوسل برسول الله ولا تتوسل؟ أنت أخي وأنا أخوك اجتهدت واجتهدت كما اجتهد أبو حنيفة والشافعي في مسائل كثيرة، ما المشكلة؟ لماذا تثير من ذلك مشكلة تجعل منها بركان يلتهب؟ غداً سيبدأ موسم الموالد في هذه البلدة، وسيبدأ التوجه القلبي المعبر عن حب هذه الأمة لرسولها فاسمعوا وانظروا إلى صيحات التكبير، واسمعوا وانظروا إلى الهجوم المقزع العجيب الشديد، فيما هذا كله؟ هل تتصورون أن هذا يتغى به وجه الله أبداً، ترى لو أنا فعلنا مثلما يفعلون إذاً إلى ما سيؤول حال المسلمين؟ وعدوهم ينتظر المزيد من ذلك؟

في سنة من السنوات كان اليوم مصادف مناسبتين، مناسبة عيد الميلاد - عيد ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام؛ بل اليوم الأول من السنة الميلادية الجديدة، وكان اليوم ذاته يحكم مناسبة عيد المولد النبوي، وكنت أصغي مصادفة إلى بعض هذه الإذاعات الإسلامية؛ بل إلى الإذاعة الإسلامية التي تنادي لنفسها بالريادة الإسلامية، وسمعت المحدث وهو يحذر من مظاهر الفسوق والعصيان التي تنور في البيوت في مثل هذا اليوم، قلت في نفسي جزا الله المتحدث خيراً إنه يحذر من هذا اللهو ومن

هذا الفسوق ومن مظاهر هذه المعاصي التي اتجهت ريحها من الغرب إلى بلادنا بمناسبة رأس السنة الميلادية فجزاه الله خيراً على هذا، وأصغيت وأنا منشراح الصدر إلى ما يقول، وفي آخر حديثه تبين أن الرجل إنما يعني الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، إنما يريد بالفسوق؛ الفسوق الذي يكون عند احتفال الناس بالمولد، وبقصد باللهو والجنوح والبعد عن الدين .. يقصد بذلك كله ما يتنامى من إقبال الناس على مولد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم.

أما ما يجري في تلك البيوتات في تلك الليلة من مظاهر الفسوق والعصيان، أما الأنهار من المسكرات التي تتدفق في الأنفاق في تلك المناسبة فلا خطر من ذلك قط، ولا يتناقض شيء منه مع دين الله سبحانه وتعالى قط.

أقول هذا أيها الأخوة لنتمتع بوعي يجعلنا نفرح عشرة بالمائة بما نسميه اليقظة الإسلامية، ونحذر تسعين بالمائة على هذه اليقظة من أعدائها الأبعدين ومن المحترفين لمعاداة الإسلام الأقربين.

